علاقة التضمن عند الراغب الأصفهاني
من خلال كتاب المفردات في غريب القرآن

أ. حسين قاضي

جامعة الجيلالي بونعامة

بخميس مليانة- الجزائر

ملخص البحث:

الرموز اللغوية تختلف في دلالتها ضيقا واتساعا، يتسع اللفظ ليشمل ألفاظا أو معان أخرى، ويضيق أحيانا فيصير مشتَمَلا عليه.

وينقل أحيانا للدلالة على غير ما كان يدل عليه فيستغرق مساحة دلالية غير مساحته الأولى.، و**التضمن أو الاشتمال hyponym**: من العلاقات الدلالية الأساسية، ويشير إلى تلك الوحدات المعجمية التي تنضوي تحتها دلالة وحدات معجمية أخرى وهو يختلف عن الترادف في أنه تضمن من طرف واحد، والمقال يناقش هذه القضية في كتاب المفردات للراغب الأصفهاني.

Abstract

Linguistic symbols differ in size Remember narrow and widen, It expands to include other word verbally, and sometimes narrows Faiser having it.

Sometimes transferred to signify what he is suggesting it takes space tag is the first area.,

The hyponym: is the inclusion or inclusion of basic Remember relations, and refers to those lexical units that fall beneath denote units and other lexical and "is different from that Linguistic synonymy to ensure unilaterally

تمهيد:

تختلف الرموز اللغوية في مساحاتها الدلالية ضيقا واتساعا، فقد يتسع اللفظ ليشمل ألفاظا أخرى، وقد يضيق فيصير مشتَمَلا عليه، وقد ينقل أحيانا للدلالة على غير ما كان يدل عليه فيستغرق مساحة دلالية غير مساحته الأولى، وتلك هي حركية دلالات الألفاظ ضيقا واتساعا، وهجرة أو نقلا، وسيطرة على مساحات دلالية تزيد أو تنقص اعتبارا بقوة تلك الرموز أو ضعفها. وتربط هذه الرموزَ اللغوية المنتميةَ إلى المجال نفسه علاقاتٌ مختلفة، تكشف عن المساحة الدلالية التي يشغلها كل لفظ، ومن ذلك

التضمن أو ما يسمى بالاشتمال ، والذي سنحاول التعرف على قيمته في ميدان البحث الدلالي خاصة من الناحية الإجرائية، ومن ثم الكشف عن مدى اعتماد الراغب الأصفهاني (ت502ه)[1] عليه في تحقيق مفردات ألفاظ القرآن الكريم والكشف عن معانيها.

التضمن أو الاشتمال hyponym: يعتبر التضمن أو الاشتمال من العلاقات الدلالية الأساسية، ويشير إلى تلك الوحدات المعجمية التي تنضوي تحتها دلالة وحدات معجمية أخرى و"هو يختلف عن الترادف في أنه تضمن من طرف واحد. يكون (أ) مشتملا على (ب) حين يكون (ب) أعلى في التقسيم التصنيفي أو التفريعي."[2] وهو استلزام من جهة واحدة فقولنا: (هذه ريحانة) يستلزم بالضرورة أنها (وردة) ويتضمنها، غير أن قولنا: (هذه وردة) لا يستلزم بالضرورة أنها ريحانة ولا يتضمنها، بل قد تكون زنبقة أو ياسمينة أو غيرها من الورود.

فالتضمن أو التضمين-إذا- يعتبر علاقة موضعية أساسية في نظر علم اللغة الحديث، وهو كثيرا ما يذكّر بمفهوم الاحتواء inclusion لاشتمال بعض الألفاظ على بعض. فلفظة ريحانة التي مثلنا بها تحتويها لفظة وردة وتشتمل عليها لكون الثانية أوسع مساحة دلالية من الأولى، ولكون الأولى جزءا من الثانية، وهو ما جعلها أضيق مساحة دلالية من الأخرى. وتسمى اللفظة العليا الواسعة المساحة الدلالية ضامنةً، فيما تسمى اللفظة السفلى الضيقة المساحة الدلالية تضمينةً. وتتنوع علاقة التضمين هذه من لغة إلى أخرى، كما أنه لا توجد أحيانا لفظة ضامنة، فلا وجود مثلا للفظة ضامنة لجميع كلمات الألوان.[3]

وتحت التضمن يدخل ما يسمى **بالجزيئات المتداخلة** مثل يوم، أسبوع، شهر، سنة...[4] ومثله حي، بلدية، دائرة، ولاية... حيث يكون في كل واحدة من هذه الكلمات درجة ما من العموم مقارنة بالتي تليها، ولذلك يطلق بعضهم على التضمين اسم درجة العموم، حيث " يمكن أن نجد مثلا تحت أية كلمة منها مجموعة أكثر تخصصا، ولذا ليس الأمر خاصا بدرجة من العموم وأخرى من الخصوص، بل يمكن ترتيب الكلمات الخاصة بذلك في شكل هرمي."[5]

وإن أهم ما يلفت الانتباه اعتمادُ الراغب في مفرداته أثناء تحقيقِهِ ألفاظ القرآن الكريم وتفريقِهِ الدلالي بين كثير من المفردات المتقاربة الدلالة على التضمن أو الاحتواء باعتباره معيارا من معايير التفرقة بين الألفاظ المتقاربة الدلالة، وذلك من أجل تحقيقها وتحرير معانيها، ومن ذلك تفريقه بين ثلاثة ألفاظ تقاربت بناءً ودلالةً وهي:

1- الفَرْق والفلق والفَطْر، حيث قال الراغب:

"**الفَرْقُ** يقارب **الفلق** لكن الفلق يقال اعتبارا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارا بالانفصال قال تعالى:{ وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ} [البقرة/ 50]، والفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرّدة من النّاس، وقيل: فَرَقُ الصّبح، وفلق الصّبح. قال:{فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}

[الشعراء/ 63]... وفَرَقْتُ بين الشّيئين: فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة. قال تعالى:{فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ} [المائدة/ 25]."[6]

وقال في مادة **فلق**:" الفَلْقُ: شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض. يقال: فَلَقْتُهُ فَانْفَلَقَ. قال تعالى:{ فالِقُ الْإِصْباحِ} [الأنعام/ 96]... {فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء/ 63]، وقيل للمطمئنّ من الأرض بين ربوتين: فَلَقٌ... والْفَلِيقُ والْفَالِقُ: ما بين الجبلين وما بين السّنامين من ظهر البعير."[7]

وقال في مادة **فطر**:" أصل الفَطْرِ: الشّقُّ طولا."[8]

فهذه الأحداث المتفقة ألفاظُها في كثير من الحروف يجمعها معنى عام هو مفارقة شيء لشيء وانفصاله عنه، غير أن ذلك الافتراق يتم بأشكال متمايزة عن بعضها البعض وبدرجات متفاوتة، ومن ثم كان لزاما أن تكون لكل منها مساحة دلالية مختلفة ضيقا واتساعا، كما كان ممكنا أن تكون بعض المساحات الدلالية متضمنة للبعض الآخر ومشتملة عليها، ولا يعرف ذلك في الواقع إلا بمعرفة الفرق بين هذه الألفاظ من خلال السياقات التي ترد فيها، وهي المهمة التي رآها الراغب ملقاة على عاتقه ككل المشتغلين بالفروق الدلالية الذين صرفوا اهتمامهم " إلى التحليل وشرح المعاني وبسط المساحة الدلالية التي يحددها الرمز الخاص بها، وما هي الحدود الفاصلة بينها وبين جارتها."[9] ولذلك تتحدد دلالة لفظ (الفرق) حين يبين الشيء من الشيء بينونة تامة لأنه كما حده الراغب (يقال اعتبارا بالانفصال) بين الشيئين. و(الفلق) أقل انفصالا واستقلالية منه(الفرق) لأنه يدل على بينونة من جانب دون جانب لكونه انشقاقا، فهو انفصال جزئي. أما (الفطر) فأخص من الفلق لأنه يمثل نوعا منه فقط بسبب كونه (الشّقّ طولا) كما قال الراغب، ومنه فطر البئر أي شقها، ومعلوم كيف تُشق البئر. وقد ذهب ابن منظور إلى أن (الفطرَ) الشقُّ مطلقا فقال:" فطَرَ الشيءَ يَفْطُرُه فَطْراً فانْفَطَر وفطَّرَه شقه وتَفَطَّرَ الشيءُ تشقق والفَطْر الشق وأَنشد ثعلب:

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ فالتَأَمَ الفُطُورُ.[10]

وأَصل الفَطْر الشق ومنه قوله تعالى:{ إذا السماء انْفَطَرَتْ}[الانفطار/ 1] أَي انشقت وفي الحديث (قام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى تَفَطَّرَتْ قدماه.)[11] أَي انشقتا... وسيف فُطَار فيه صدوع وشقوق قال عنترة:

وسيفي كالعَقِيقَةِ وهو كِمْعِي سلاحي لا أَفَلَّ ولا فُطارا."[12]

وإلى مثل ذلك ذهب الأزهري قائلا:" أصلُ الفَطْر الشقّ، ومنه قول الله جلّ وعزّ: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار/ 1]، أي: انشقت. وتفطّرت قدماه، أي: انشقتَا، ومنه أُخِذ فِطْرُ الصائم لأنه يفتح فاه."[13] لتدل بذلك آيةُ{ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار/ 1] على ما تدل عليه آيةُ { إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق/ 1] فيفسَّر القرآن بالقرآن. ومع ذلك يبقى بين الفعلين (فطر) و(فلق) الدالِّ على

الانشقاق فرق لا يظهر إلا لمن نظر في ألفاظ القرآن الكريم محققا ومدققا، وإلا فيم يكمن سرّ توظيف الفَطر في آية الانفطار والشق في آية الانشقاق؟ وهل يمكن الإبدال بينهما في السياقات المختلفة إن كان اللفظان مترادفين؟ وذلك ما دعا الراغب من أجل تفسير القرآن وإيفائه البيان إلى القول بأن بينهما فرقا كامنا في اختلاف زاوية النظر إلى ذلك الشق لكونه حدثًا عاما يدل على مطلق الانفصال أو المباينة، ويتخصص باختلاف الرؤية، فإذا كان المشقوق مشقوقا بالطول سمي مفطورا كالبئر الفطورة أو المشقوقة طولا، ليعتمد الراغب في ذلك على ملمح الطول في تمييزه بينهما. فيما يذكر الفخر الرازي في رواية عن ابن مسعود في تفسير قوله تعالى:{ تَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ} [الانشقاق/ 19] أن " هذه الآية في السماء وتغيرها من حال إلى حال، والمعنى لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة، وذلك لأنها أولا تنشق كما قال:{ إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق/ 1] ثم تنفطر كما قال:{ إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار/ 1] ثم تصير:{ وَرْدَةً كَالدِّهانِ} [الرحمن/ 37] وتارة: {كَالْمُهْلِ} [المعارج/ 8] على ما ذكر اللّه تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن."[14]

ففعل الانفطار حسب الرازي وما نقله عن ابن مسعود غير الانشقاق، لأنه تالٍ له والآخر متقدم عليه، ومن ثم كانا مختلفين رتبة وصفة، كونهما مما يصيب السماء يوم القيامة من مشاهد انقلاب يحدث في الكون، وتغيرات رهيبة غير مألوفة فيها انشقاق، وانفطار، وكشط، وطي، وغير ذلك من أشراط الساعة.

أما ابن عباس رضي الله عنهما فقال في تفسير أصل الفطر معتمدا على السماع وكفى به دليلا:" كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها."[15] ليعطي بذلك للفطر ملمحا دلاليا آخر غير ما ذكر الراغب والرازي وهو الإبداع على غير مثال سابق.

وقريب من هذا ما ذكره صاحب المقاييس في تحقيق هذه المواد المتقاربة شكلا ومعنى، حيث بيّن معنى كل لفظ منها في مواضع متفرقة من مقاييسه، مع إقراره بوجود معنى عام يجمعها جميعا هو عين ما ذكره الراغب، فقال:

فرق: الفاء والراء والقاف أُصَيلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين.[16]

فلق: الفاء واللام والقاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فُرْجةٍ وبَيْنُونةٍ في الشيء.[17]

فطر: الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْح شيء وإبرازِه.[18]

ومن ثم يمكن التمييز بين هذه الألفاظ من خلال مكوناتها الدلالية التي تشترك فيها الألفاظ الثلاثة، ومن خلال مكوناتها التمييزية التي ينفرد بها كل لفظ، وذلك حسب ما اعتمد عليه الراغب خصوصا لتبدو كما يلي:

الفَرْقُ = حدث + المباينة + **التامة**

الفلق = حدث+ المباينة + **الجزئية**

الفَطْر = حدث + المباينة + الجزئية + **الطول أو العمق**

ولذلك نقول – حسب نظرة الراغب، وبعد بيان الفروق الدقيقة بين تلك الألفاظ- بأن العلاقة الجامعة بين الألفاظ الثلاثة هي علاقة التضمن ما دامت دلالة لفظ الفرق متضمنة لدلالة لفظ الفلق، ودلالة لفظ الفلق متضمنة لدلالة لفظ الفطر، ومن ثم كان لكل واحد من تلك المتقاربات مساحة دلالية، أوسعها مساحة الفرق، وأضيقها مساحة الفطر، ومساحة الفلق بينهما، كما يبدو ذلك من خلال الشكل التالي الذي تتدرج فيه تلك الألفاظ حسب المساحة الدلالية لكل منها من الأوسع إلى الأضيق مع مراعاة ما يربطها من تضمّن:

2- الحرام والبَسْل: قال الراغب:" والفرق بين الحرام والبَسْل أنّ الحرام عامّ فيما كان ممنوعا منه بالحكم والقهر، والبسل هو الممنوع منه بالقهر."[19]

ففي تفريقه بين لفظي الحرام والبسل استعان بعلاقة التضمن التي تجمعهما، حيث عدت الوحدة المعجمية (حرام) وحدة ضامنة لأنها الأعلى في التقسيم التفريعي أو التصنيفي مادامت الأوسع مساحة دلالية، والمتمتعة بدرجة من العموم مقارنة بالوحدة الأخرى(بسل) والتي كثيرا ما يُعتقد أنها مرادفة لها، غير أن كونها السفلى أو الأدنى في التقسيم التفريعي أو التصنيفي مادامت الأضيق مساحة دلالية جعلها تضمينة، ومنعها في الوقت نفسه من أن تكون مرادفة للأولى لأن مساحتيهما الدلالية مختلفة، وشرط الترادف – كما هو معلوم- أن تدل الثانية على ما تدل عليه الأولى بالتساوي بينهما، وهو ما لا سبيل إلى تحققه مادامت العلاقة بينهما تضمنا من طرف واحد لكون دلالة الثانية منضوية تحت الأولى.

3- الظل والفيء: قال الراغب في مادة (ظلل):" الظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِّ، وهو أعمُّ من الفيء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس... وقوله: أفياءُ الظِّلَالِ فَالظِّلَالُ عامٌّ والفيءُ خاصّ، وقوله: (أفياءُ الظِّلَالِ)، هو من إضافة الشيء إلى جنسه."[20]

وقال في مادة فيأ:" فَاءَ الظّلُّ، والفَيْءُ لا يقال إلّا للرّاجع منه. قال تعالى:{ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ} [النحل/ 48]. وقيل للغنيمة التي لا يلحق فيها مشقّة: فَيْءٌ، قال:{ ما أفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ} [الحشر/ 7]."[21]

فعلاقة التضمن هي العلاقة التي انطلق الراغب منها مفرقا بين هذا الزوج (الظل والفيء) الذي كثيرا ما يعامَل خطأً معاملة المترادف، فقد نص الراغب صراحة على كون لفظ الظل الذي يمثل الجنس يتمتع بقدر من العموم لا يتمتع به لفظ الفيء الذي يمثل الشيء أو الذات، مما يعطيه مساحة دلالية أوسع تؤهله لأن يشتمل على دلالة لفظ الفيء، لأنّ هذا الأخير ضيِّقُ المساحة الدلالية مادام (لا يقال إلّا للرّاجع منه) كما قال الراغب، ولذلك نلحظ في هذه العلاقة تضمنا من طرف واحد، مثّل فيه لفظ الظل اللفظة الضامنة لكونه الوحدة المعجمية الأعلى، ومثل لفظ الفيء التضمينة لكونه الوحدة المعجمية السفلى. وقد كانت الاستعانة بتلك العلاقة في تحقيق اللفظين إجراءً تطبيقيا قيِّما ساهم في إدراك الفرق بين ما يُعتقد فيه الترادف، وهو ما يكشف عن وعي كبير ومبكر للراغب وكثير من القدماء بما للعلاقات الدلالية المختلفة، وعلى رأسها علاقة التضمن من أهمية، حيث يتوقف الفهم والتوظيف الصحيحان للمفردة على فهم علاقتها بغيرها.

وما يقال عن زوج (الظل والفيء) يقال عن زوج (الغنيمة والفيء) باعتبار (الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقّة) تسمى فيئا أيضا.

4- الحسنة والسيئة: قال الراغب:" الحسنةُ يعبّر عنها عن كلّ ما يسرّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادّها. وهما من الألفاظ المشتركة، كالحيوان، الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما، فقوله تعالى:{ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء/ 78]، أي: خصب وسعة وظفر، {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أي: جدب وضيق وخيبة، { يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء/ 78]" [22]

فالسيئة تتضمن الجدب والضيق والخيبة وغير ذلك مما يسوء من نقمة تصيب الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والحسنة تتضمن الخصب والسعة والظفر وغير ذلك مما يسرّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، وبهذا تسمى كل من الحسنة والسيئة لفظة ضامنة، ولا يصدق هذا الاسم (ضامنة) إلا على هذين اللفظين (الحسنة والسيئة) اللذين يتمتعان بمساحة دلالية واسعة، أما بقية الألفاظ التي ذكرها الراغب فتسمى تضمينة، ويصدق ذلك الاسم على كل من الخصب والسعة والظفر باعتبار تضمُّنِ الحسنة لها، وعلى الجدب والضيق والخيبة باعتبار تضمُّنِ السيئة لها، وكل تضمينة مساحتها الدلالية أضيق بالضرورة من مساحة الضامنة، ولذلك كانت هذه العلاقة استلزاما من جهة واحدة أتاحته سعة المساحة الدلالية.

5- المثل والنّدّ والشبه والمساوي (والشكل):

المثل: قال الراغب:" المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنّ النّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة

فقط، والمِثْلَ عامّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى/ 11]."[23]

فاللفظة الضامنة من بين هذه الألفاظ الموضوعة للمشابهة هي (المثل) لأنها تصدق على البقية من الألفاظ التي تعد جميعا تضمينات وتحتويها، ولذلك يقال- مادامت العلاقة بينها وبين كل من النّدّ والشبه والمساوي استلزاما من طرف واحد – بأن كل ندّ وكل شبه وكل مساو وكل شكل يعد مثلا، ولكن ليس كل مثل ندّا أو شبها أو مساويا أو شكلا، وذلك لسعة مساحة دلالة لفظ (المثل) وضيق مساحة دلالة بقية الألفاظ الموضوعة للمشابهة كما يوضحه الشكل التالي:

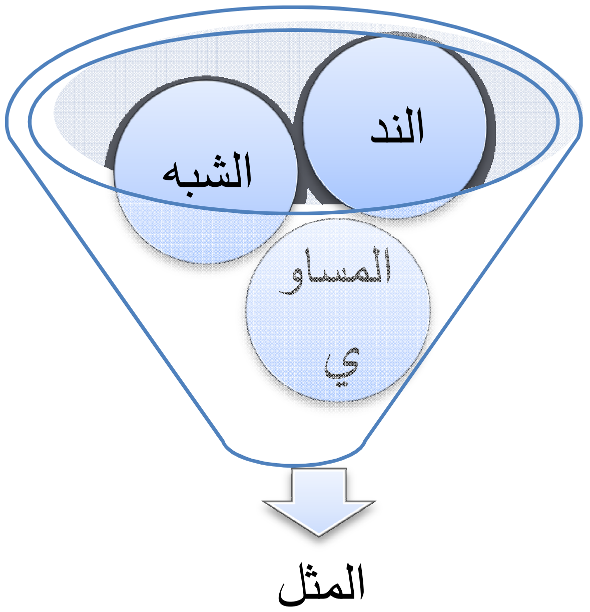

ومن الجزيئات المتداخلة الأمثلة التالية:

1- الكلام والقول والكلمة: قال الراغب:" الْكَلَامُ يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند النحويين يقع على الجزء منه، اسما كان، أو فعلا، أو أداة. وعند كثير من المتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة، وهو أخصّ من القول، فإن القول يقع عندهم على المفردات، والكَلمةُ تقع عندهم على كلّ واحد من الأنواع الثّلاثة، وقد قيل بخلاف ذلك."[24]

فهذه المصطلحات عند المتكلمين وحتى عند النحويين تمثل جزيئات متداخلة يتضمن بعضها بعضا، وكل متضمِّن أوسعُ مساحة مما يتضمنه، فالكلمة أضيق هذه المصطلحات مساحة دلالية لأنها لا تصدق في الأصل إلا على الألفاظ المفردة من الأسماء والأفعال وحروف المعاني، ولذلك اعتبرها بعضهم الوحدة الدلالية الصغرى،[25] وإن كانت هي نفسها متضمنة لحروف المباني والتي لولاها ما بنيت الكلمة ولا عَرفت شكلا، ولذلك قال في مادة (حرف):" وحروف الهجاء: أطراف الكلمة."[26] والكلام أوسع مساحة من الكلمة لأنه لا يقع إلا على الجمل بشرط إفادتها معنى يحسن السكوت عليه، ومن ثم كان متضمنا للكلمة مادامت الجمل لا تتكون إلا من كلمتين فأكثر، حيث تسند إحداهما إلى

الأخرى، أما القول فأوسع هذه المصطلحات مساحة دلالية لتضمنه المفردات والمركبات من الجمل سواء أفادت أو لم تفد، وهو ما أكده ابن مالك في ألفيته بقوله:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم، وفعل، ثم حرف: الكلم

واحده: كلمة والقول عم   وكلمة بها كلام قد يؤم.

وبذلك تعرف حدود كل مصطلح وتحد مساحته، كما تعرف علاقته بغيره مما يمكن أن يتصور منه التضمن والاشتمال، ومن ثم تعرف درجة العموم لكل مصطلح، والشكل الهرمي التالي يوضح كيف يتضمن الأوسعُ مساحة الأضيقَ من بين الوحدات الدلالية التالية:

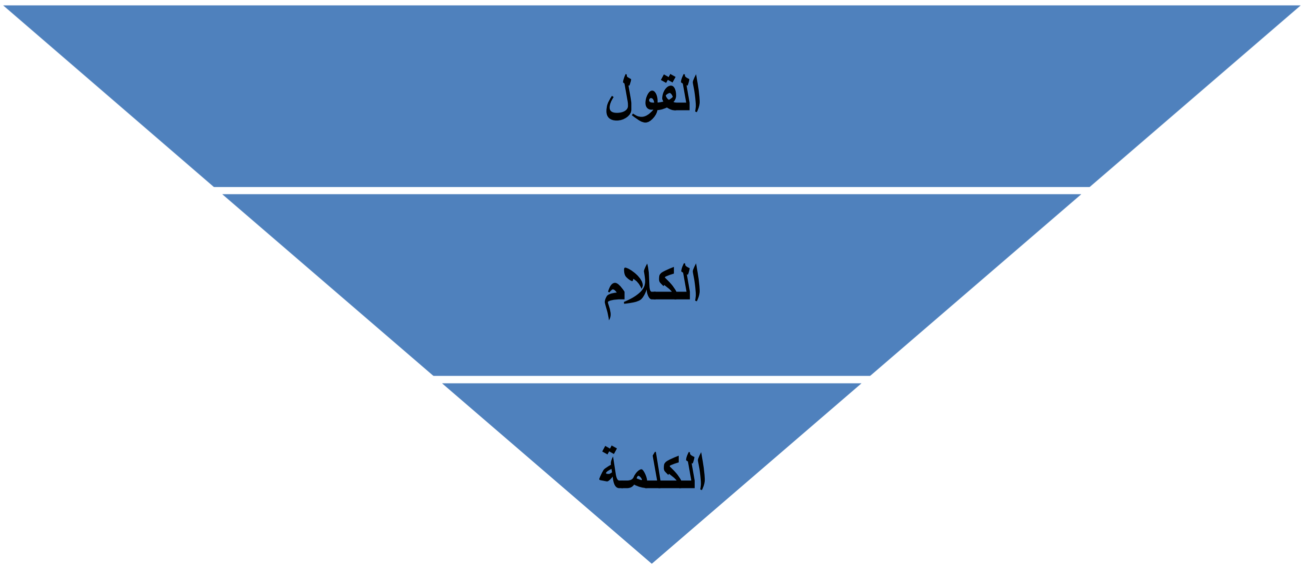

وقد أكد الراغب سعة المساحة الدلالية للفظ (القول) في مادة (قول) مقارنة بلفظ (الكلام) خاصة، لكونه مشتملا على كل منطوق مفردا كان أو مركبا مفيدا أو غير مفيد، مادامت مساحته ممتدة من الكلمات إلى القصائد والخطب ونحوهما، وهو الأمر الذي جعله مشتملا على (الكلام) لكون هذا الأخير دالا على اللفظ المفيد، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مركبا كما قال ابن مالك، وهاهو الراغب يصرح بتلك المساحة الدلالية الواسعة للفظ (القول) مفصحا عما بينه وبين لفظ (الكلام) من علاقة تضمنية حيث يقول: " القَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركّب من الحروف المبرز بالنّطق، مفردا كان أو جملة، فالمفرد كقولك: زيد، وخرج. والمركّب، زيد منطلق، وهل خرج عمرو؟ ونحو ذلك، وقد يستعمل الجزء الواحد من الأنواع الثلاثة أعني: الاسم والفعل والأداة قَوْلًا، كما قد تسمّى القصيدة والخطبة ونحوهما قَوْلًا."[27]

2- بين الجنس والنوع والذات: قال الراغب في مادة (**فضل**):

"الفَضْلُ إذا استعمل لزيادة أحد الشّيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب:

- فضل من حيث الجنس، كفضل جنس الحيوان على جنس النّبات.

- وفضل من حيث النّوع، كفضل الإنسان على غيره من الحيوان، وعلى هذا النحو قوله:{ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ} [الإسراء/ 70]، إلى قوله:{ تَفْضِيلًا}.
- وفضل من حيث الذّات، كفضل رجل على آخر ومن هذا النّوع التّفضيل المذكور في قوله:{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} [النحل/ 71]."[28]

فقد يلتبس مفهوم لفظ **الجنس** بلفظ **النوع**، وربما استخدم الناس لفظا واحدا منهما فيما يُستخدم فيه الآخر، مما يوهم بأنهما مترادفان، لا لشيء إلا للجهل بالعلاقة التي تجمعهما، والجهل بالمساحة الدلالية لكل منهما، ولذلك يوظف الراغب هذه الألفاظ أثناء تحقيقه للفظ (الفضل) مبينا معنى وحدود ومساحة كل لفظ. فالجنس أعم لتضمنه أنواعا مختلفة، فهو ضامنة والنوع تضمينة، غير أن النوع هو الآخر فيه درجة من العموم أيضا لاحتوائه الذوات ليمثل لفظةً ضامنةً مقارنة بما يشتمل عليه من أفراد يُعد كل واحد منها تضمينة، فالعلاقة التي تجمع هذه الألفاظ هي علاقة التضمن لكون بعضها محتوَى من البعض الآخر ومشتمَلا عليه، ولذلك تفاوتت مساحة ما يصدق عليه كل لفظ ضيقا واتساعا. ويمكن إيضاح مساحة كل لفظ من خلال الهرم التالي:

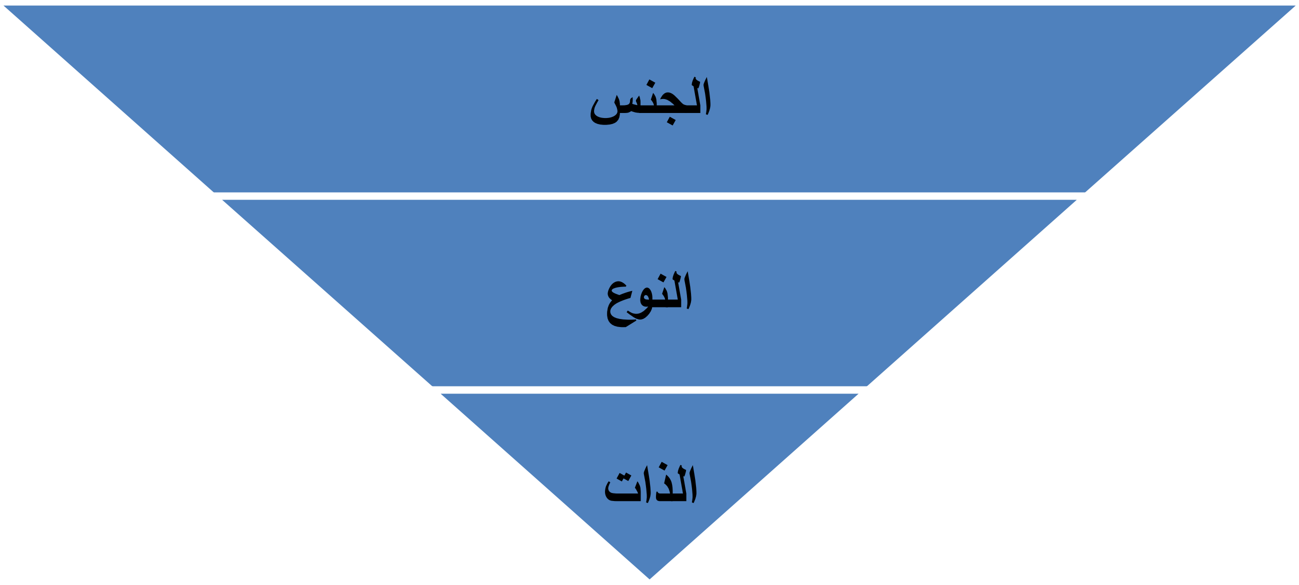

3- جَعَلَ وفعل وعمل وصنع:

قال الراغب في مادة (جعل):" جعل لفظ عام في الأفعال كلها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها."[29]

وقال في مادة (فعل):" الفِعْلُ: التأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والعمل مثله، والصّنع أخصّ منهما."[30]

وقال في مادة (عمل):" العَمَلُ: كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصّ من الفعل، لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوَامِلُ، والعَمَلُ يستعمل في الأَعْمَالِ الصالحة والسّيّئة، قال:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ} [البقرة/ 277]."[31]

وقال في مادة (صنع):" الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعاً، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل. قال تعالى:{ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة النمل/ 88]."[32]

وقد أوردنا هذه المواد مرتبة من العام إلى الخاص أو من اللفظة الضامنة إلى اللفظة التضمينة، حيث يحتوي الأعمُّ منها الأخصَّ، لا كما جاءت في المفردات مرتبة حسب النظام الألفبائي. وإن أول ما ينكشف لنا ونحن نطالع ما بيّنه الراغب من اختصاص كل لفظ منها باستعمال معين ودلالة خاصة وعيُه بعلاقة التضمن التي جمعت هذه الألفاظ، والتي كثيرا ما أدى الجهل بها إلى استعمال جل تلك الألفاظ دون مراعاة خصوصية استعمال كل واحد منها، ولذلك وجدناه -على الرغم من تناثر مادة هذه الأفعال في مواضع متفرقة من مفرداته- حريصا على شرح المفردة وتبيان دلالتها من خلال ارتباطها بغيرها من المفردات التي يجمع بينها مجال دلالي واحد، إضافة إلى تأكيده على نوع تلك العلاقة التي جمعت بين تلك المفردات المتقاربة، لأن معرفتها كفيلة بإدراك مابين بعضها من فروق واستعمالات مخصوصة، والراغب وإن لم يسمها بتسمية المحدثين من علماء اللغة مكتفيا بذكر ما بينها من عموم وخصوص فلأن المفهوم واحد والاصطلاح لا مشاحة فيه مادام الاحتواء أو الاشتمال أهم ما يجمعها كلها. ولذلك كان اللفظ (جعل) متضمنا للبقية لكونه الأعلى في التقسيم التصنيفي والأوسع مساحة دلالية، فهو اللفظة الضامنة والبقية تضمينات. لكن العلاقة بين بقية الألفاظ علاقة تضمن أيضا، حيث يعد اللفظ (فعل) الأوسع مساحة، مما يجعله لفظة ضامنة مقارنة باللفظين الآخرين، على الرغم من كونه تضمينة عند مقارنته باللفظ (جعل). كما يتحول لفظ (عمل) إلى لفظة ضامنة مقارنة باللفظ (صنع)، وهو الذي كان يمثل اللفظة التضمينة سواء في علاقته باللفظ (جعل) أو باللفظ (فعل) لكونهما مشتملين عليه ما داما أوسعَ منه مساحة دلالية، وأعلى منه في التقسيم التصنيفي. أما اللفظ (صنع) فهو اللفظة التضمينة دائما لأنه الأضيق مساحة والأشد خصوصية، ولذلك كان الأكثر صفات تمييزية فهو:

صنع= فعل + جيد + لا ينسب إلى الحيوان والجماد.

والدائرة التالية تترجم علاقة التضمن التي تجمع الألفاظ الأربعة:

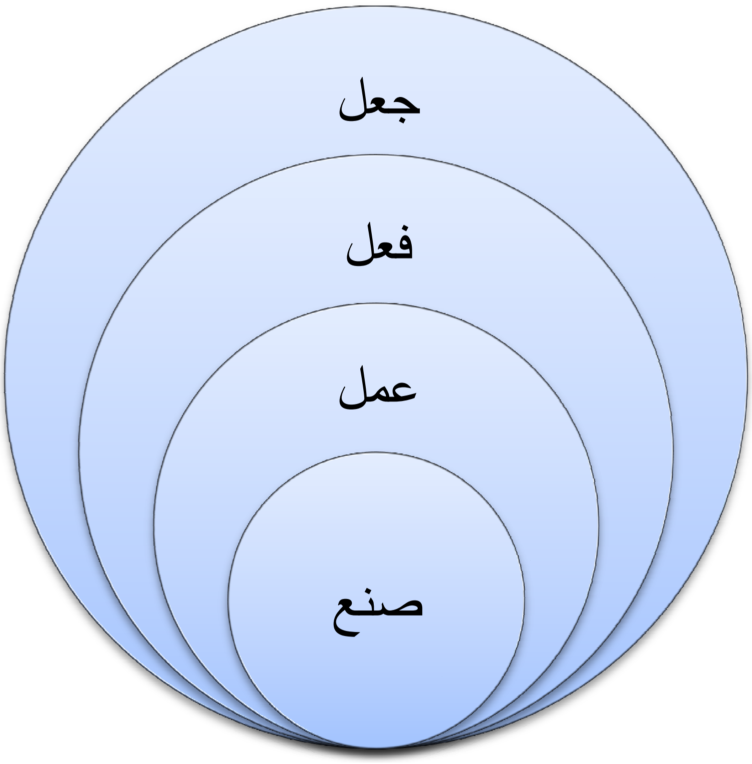

ولا أدل على وعي الراغب بقيمة هذه العلاقة في ميدان تحقيق الألفاظ وتحرير معانيها من اتكاءه عليها أثناء تناوله كثيرا من مفردات القرآن الكريم على غرار الأمثلة السابقة، وبيانه الفرق بين ما كان منها متقارب المعنى، بحيث يستعمله الناس دون إدراك لتلك الفروق التي تعد في الحقيقة وجها من وجوه الإعجاز اللغوي عامة والبياني خاصة للقرآن الكريم الذي جعل فيه الله عز وجل اللفظ المناسب في المكان المناسب، ووفق تلك الرؤية المنطلقة من الوعي بقيمة العلاقات الدلالية المختلفة بصفة عامة، وبقيمة علاقة التضمن بصفة خاصة ينطلق الراغب مفرقا بين دلالات الأزواج التالية:

الصفحة	الضامنة	التضمينة	تعبير الراغب عن علاقة التضمن
63	الإثم	الكذب	تسمية الكذب إثماً لكون الكذب من جملة الإثم.
63	الحيوان	الإنسان	تسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته.
167 828	النور	الضياء	الضياء أعلى مرتبة من النور، إذ كل ضياء نور، وليس كل نور ضياء. تخصيص الشّمس بالضّوء، والقمر بالنّور من حيث إنّ الضّوء أخصّ من النّور.
194	الحزن	الجزع	الجَزَع: أبلغ من الحزن، فإنّ الحزن عام والجزع هو: حزن يصرف الإنسان عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه.
117	الموت	النوم	قد علم أنّ النوم من جنس الموت لقوله عزّ

			وجلّ:{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها} [الزمر/ 42]
635	الجزع	الفزع	الفَزَعُ: انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع.
236 815	الإحسان	الإنعام	الإحسان أعمّ من الإنعام. والإِنْعَامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ، ولا يقال إلّا إذا كان المُوصَلُ إليه من جِنْسِ النَّاطِقِينَ، فإنه لا يقال أَنْعَمَ فلانٌ على فَرَسِهِ. قال تعالى:{ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة/ 7].

فعلة تسمية الكذب إنّما هو ما بين اللفظين من علاقة اشتمال، وذلك من باب تسمية الجزء باسم الكل ضمن المجاز المرسل، والأمر نفسه بالنسبة لتسمية الإنسان حيوانا، وقوله " كل ضياء نور، وليس كل نور ضياء." تأكيد على ما بينهما من تضمن، حيث مثل لفظ النور اللفظ الأوسع مساحة دلالية، في الوقت الذي مثل فيه لفظ الضياء اللفظ الأضيق مساحة دلالية، ولذلك قال:" الضّوء أخصّ من النّور"، وإذا كان لفظ الحزن لفظا عاما فإن لفظ الجزع دال على درجة عالية من الحزن، لأنه " يصرف الإنسان عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه." والحال نفسها تنبه إليها الراغب فيما بين الموت والنوم، والجزع والفزع، والإحسان والإنعام، وغير ذلك من الأزواج التي يلحظ فيها علاقة التضمن، فتكون تلك العلاقة إذا فُهمت معيارا لتحديد المساحة الدلالية للفظ، ومن ثم نفي اعتقاد الترادف بين تلك الأزواج.

وفي الأخير لا يمكننا إلا التأكيد على أن الراغب كان على وعي بأهمية العلاقات الدلالية ذات الصلة بمساحات المعنى التي يشغلها كل لفظ سوى المترادف والمشترك، ومن ثم وجدناه مستعينا بعلاقة التضمن في تحقيق ألفاظ القرآن الكريم وكشف معانيها.

وقد تبين لنا من خلال ما تطرقنا إليه من أمثلة أن الراغب كان يعتبر التضمن من العلاقات الدلالية الأساسية التي يتوقف فهم المعنى على فهمها وتمثلها، ولا أدل على ذلك من كثرة اعتماده عليها أثناء تفريقه بين كثير من المفردات المتقاربة الدلالة والتي كثيرا ما يُعتقد فيها الترادف، حيث كان يعمد من أجل تحرير دلالات هذه الألفاظ إلى تحديد مكوناتها الدلالية المشتركة مركزا على ملامحها التمييزية التي ينفرد بها كل لفظ، وبذلك تُعرف مساحته وحدوده، كما تعرف علاقته بغيره مما يمكن أن يتصور منه التضمن والاشتمال، ولولا مثل هذا التحرير الدلالي لتلك الألفاظ التي يجمعها مجال دلالي واحد ما عُرف اختصاص كل لفظ من تلك الألفاظ باستعمال معين ودلالة خاصة لاسيما في القرآن الكريم وهو مجال كتابِ مفردات الراغب.

الهوامش:

[1] – هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني أو الأصبهاني، عرف أكثر ما عرف بلقبه (الراغب)، فكان هذا اللقب حالا محل اسمه، إذ لم يشر إليه الناقلون عنه إلا بلقب الأصفهاني أو الراغب، قال الزركلي في الأعلام ج2 ص 255:" الراغب... من أهل أصفهان سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي." ومع هذا فإن ترجمته من التراجم القليلة النادرة، وذلك لأن جل المصادر التي ترجمت له -على قلتها – لا تمدنا بكثير بيانات حول اسمه ونشأته وعصره ومذهبه العقدي... فكانت تراجمهم له موجزة مختصرة لا تتعدى بضعة أسطر تشير إلى أنه إمام في اللغة والأدب والتفسير والحكمة، فبينما نرى أن معجمه في (مفردات القرآن) من المراجع الهامة التي لا يستغني عنها معجمي أو مفسر جاء بعده، وأن كتابه (محاضرات الأدباء) لا يجهله أديب، وأن كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) نفيس للغاية، حتى ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج1 ص 827، أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي كان يستصحبه دائما ويستحسنه لنفاسته، نلحظ في الوقت نفسه أن الراغب الأصفهاني لم يحظ من كبار المؤرخين بعده بالكتابة عنه، فضلا عن بيان عبقريته في شتى المجالات، فلم يترجم لهذا العَلم النحرير كثير من أصحاب التراجم والسير. فلا هو مذكور في معجم الأدباء ولا في وفيات الأعيان مثلا. بل حتى تلك التراجم القليلة متضاربة أحيانا سواء فيما يخص اسمه أو فيما يخص عصره ووفاته، أو فيما يخص مذهبه العقدي. ونستثني هنا إجماع من ترجم له على ثقافته ومؤلفاته، فقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ج18 ص 120،121:" العلامة الماهر المحقق الباهر أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين. لم أظفر له بوفاة ولا بترجمة."

[2] – أحمد مختار عمر – علم الدلالة– عالم الكتب، القاهرة، مصر– ط 5، 1998 م، ص 99.

[3] – ينظر: أف. آر. بالمر– علم الدلالة– تر: مجيد الماشطة– الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985م، ص 99 -103.

[4] – أحمد مختار عمر– علم الدلالة ص 100.

[5] – محمود فهمي حجازي– مدخل إلى علم اللغة– دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ص 151.

[6] – الراغب الأصفهاني– المفردات في غريب القرآن– تحقيق: صفوان عدنان داودى– دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، 1412هـ، ص 632، 633.

[7] – المصدر نفسه ص 645.

[8] – المصدر نفسه ص 640.

[9] – فايز الداية– علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصيلية نقدية– دار الفكر، دمشق، سوريا– ط2، 1996م، ص 25.

[10] – البيت لعُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في لسان العرب لابن منظور– دار صادر، بيروت، لبنان– ط1، 1997م، مادة (ذرأ) ج1 ص 79. وهو لقيس بن ذريح في الزاهر فى معانى كلمات الناس لابن الأنباري تح: د. حاتم صالح الضامن- مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1992م، ج1 ص168 وكذلك في تاج العروس للزَّبيدي - دار الهداية، مادة (بلغ) ج 22 ص450.

[11] – حديث متفق عليه. ينظر: أبو الفضل العراقي– المغني عن حمل الأسفار– تح: أشرف عبد المقصود– مكتبة طبرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1995م، ج1 ص337. (حديث رقم1275)

[12] - ابن منظور- لسان العرب ج8 ص313. والبيت لعنترة. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري- تح: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان-ط 1، 2001م، ج 13 ص 225. تاج العروس ج 13 ص 329.

[13]- أبو منصور الأزهري - تهذيب اللغة ج 13 ص 222.

[14] - فخر الدين الرازي- مفاتيح الغيب- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان- ط 1، 2000 م ج 31 ص 101.

[15] - السيوطي- الإتقان في علوم القرآن- تح: مركز الدراسات القرآنية- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية. ج 3 ص 731، 732.

[16] - ابن فارس-المقاييس- تح: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر، بيروت، لبنان- ط 1979م، ج 4 ص 493.

[17]- المصدر نفسه، ج نفسه ص 452.

[18]- المصدر نفسه، ج نفسه ص 510.

[19] - الراغب – المفردات ص 123.

[20]- المصدر نفسه ص 535، 536.

[21] - المصدر نفسه ص 650.

[22] - المصدر نفسه ص 235.

[23] - المصدر نفسه ص 759.

[24] - المصدر نفسه ص 722.

[25] - ينظر: أحمد مختار عمر – علم الدلالة ص 33.

[26] - الراغب – المفردات ص 228.

[27] - المصدر نفسه ص 688.

[28] - المصدر نفسه ص 639.

[29] - المصدر نفسه ص 196.

[30] - المصدر نفسه ص 640.

[31] - المصدر نفسه ص 587.

[32] - المصدر نفسه ص 493.